

الأخلاق الطبية الإسلامية في القرن العشرين (فردت رسبلر)*

مراجعة أوبكر باقادر

تقدم مؤلفة هذا الكتاب مراجعة واسعة وطموحة للفتاوى والدراسات التي بدأت في الظهور من المجمع الفقهي والهيئات العلمية وبعض العلماء حول العديد من الموضوعات الطبية الحديثة أو التي أخذت أبعاداً جديدة في العصر الحديث. وكما هو معروف فإنّ التقدم المذهل في المجال الطبي وبالذات فيما عرف بالهندسة الوراثية أو زراعة الأعضاء أو الإيدز أو غيرها الكثير جعل العديد من القضايا والمسائل الأخلاقية والفقهية تبرز إلى الواجهة، مما اقتضى أن يتصدى بعض الفقهاء، بل وحتى بعض المؤسسات الرسمية للتوصل لحلول أو على الأقل البحث عن أجوبة لهذه المعضلات الجديدة. ولقد ساعدت هؤلاء الفقهاء نخبة من الأطباء أو - بوجه عام - مشتغلون في المجالات الطبية بالرأي، وكما هو معلوم هناك المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية والتي نشرت وبشكل موسّع العديد من الندوات التي تناولت الموضوعات المشار إليها سلفاً، ويصدق الأمر في مطبوعات المجمع الفقهي التابع لرابطة العالم الإسلامي وكذلك منظمة المؤتمر الإسلامي وغيرها من مطبوعات.

على أن ما يميز الكتاب الذي نراجعه هنا هو المنطلق الذي اعتمده المؤلف، فهي توضح أنه رغم ما يظهر في الوهلة الأولى أن مسألة الطب والتطبيب ليس لها كبير علاقة بالقيم والأخلاق فهي مساعدة وعون للإنسان

لتجاوز ما يلزم به من عوارض مرضية، إلا أن مسألة الأخلاق ارتبطت بالآفاق العديدة التي مكنتنا التقدم الطبي من الدخول فيها، كما سنعرض بعد قليل، ولقد انتبه إلى هذا الأمر المشتغلون بالطب في العالم الإسلامي في العصور الوسيطة وكانت لهم آراء و«فتاوى» حول الجانب الأخلاقي في ذلك. ومن هؤلاء - كما تورد المؤلفة - ما كتبه الرهاوي والطبري وابن رضوان وابن أبي أصيبعة وغيرهم. لكن وبسبب التحولات والتقدم في الطب كان من الضروري إما إعادة النظر في ما أفتي به في الماضي أو إصدار فتاوى جديدة تواكب الجديد. لكن المؤلفة حصرت نفسها في جملة من المراجع جعلتها المادة العلمية التي بنت عليها ما قدمته من تحليلات. وأهم مراجعها مجموعة من المجلات المصرية خاصة والعربية عامة التي بها صفحات فتوى يجيب فيها بعض العلماء على تساؤلات القراء، من هذه الصحف والمجلات: الأهرام «فكر ديني»، و«صفحات رمضان»، والجمهورية «سؤال وجواب»، ومجلة «الأمة» «فتاوى»، ومجلة مايو «فتاوى وأحكام» وغيرها - إضافة إلى مجلة الأزهر ومجلة التوحيد ومجلة النور ولواء الإسلام وغيرها. كما أن معظم الآراء التي اعتمدها يعود تاريخها إلى ما قبل الثمانينات الميلادية.

ولقد أوضحت المؤلفة إضافة إلى ذلك أنها ستتناول في كتابها موضوعات طبية مثل التجارب العلمية على الحيوانات أو البشر أو الهندسة الوراثية والأمراض العقلية وأمراض الشيخوخة وغيرها. ويعود ذلك - بحسب قولها - إلى قلة المصادر التي تناولت هذه الأمور والقضايا. ومن الواضح أن المؤلفة كانت في أمس الحاجة إلى أن تطلع وبشكل تفصيلي على ما تصدره وأصدرته الجامعات الفقهية والمؤتمرات والمراكز المتخصصة في هذه الموضوعات، الناشطة جداً في التسعينيات والتي تمكنت من الجمع بين آراء علماء فقه وعلماء في العلوم الطبية.

ومن أهم الموضوعات التي تناولها الكتاب موضوع الإجهاض وكيف أن هناك آراء مختلفة بل وتفسيرات مختلفة حول الموضوع، كذلك ما عرف بـ «أطفال الأنابيب» وكيف أن شيخ الأزهر جاد الحق توسع في جواز ذلك

بينما كان الشيخ عبد الحلیم محمود قد تشدد في التحريم. ويصدق الأمر نفسه في مسألة زراعة الأعضاء، وخاصة حول جواز زراعة عضو ميت في حي أو مسألة نقل الدم وغيره من تفریعات. ومن القضايا الشائقة التي تناولتها المؤلفة مسألة الجراحة التجميلية وخاصة تحول جنس الإنسان وكيف أن المواقف الفقهية إزاء هذا الأمر تتحدد بحسب الحالة ومدى تأثيرها على الفرد والمجتمع من حيث التبعات المترتبة على ذلك.

وتناولت الكاتبة بعض القضايا المتعلقة بمدى صحة بعض العبادات بسبب بعض المواقف الطبية مثلاً الحج مع أطراف صناعية أو الصيام في ظل حقن بالدواء ونحو ذلك، وكيف أن الفقهاء يسعون إلى تقديم فتاوى من شأنها استقرار المواقف الفقهية التقليدية بما يوائم التقدم الحديث. وكذلك برز موضوع العلاقة بين الطبيب والمريض وبالذات من حيث سرية المعلومات وما الذي يترتب فقهيّاً على إفشائها. إضافةً إلى ذلك تناولت المؤلفة عملية تشريح الموتى وإمكانيات استخدامها في الطب الجنائي ومن ثم موقف الفقه من حيث الجواز أو عدمه. وفي هذا المنحى تناولت قضية الختان سواء للذكور أو الإناث، وربما كان موضوع الإناث أكثر أهمية وكيف أن الفقهاء فيما يتعلق بالخفاض ربما تباينت مواقفهم. كذلك ذكرت الآراء المختلفة حول مسألة وفاة المريض المعتمد على الأجهزة هل هي جائزة أم لا؟ وتناولت موضوع الإيدز بشيء من الاختصار.

وقدمت المؤلفة سلسلةً من الفتاوى المبسرة حول مفهوم الصحة وشرب النبيذ والأدوية التي بها بعض مشتقات الخنزير والتدخين وبنوك الحلبي للرضاعة والاتصال الجنسي أثناء الدورة الشهرية والمشاركة في الهندسة الوراثية وخاصة مسألة تجميد البويضات الملقحة والصرع والسواك وما فيه من مكاسب وغيرها.

إن الكتاب رغم صغر حجمه كان طموحاً، لكن دون أن يعتمد على الأدبيات الواسعة والمتطورة التي أخذت تصدر في العالم العربي اليوم وبمشاركة العديد من الأطباء ومن مجامع اهتمت بالتناول النقدي والتدقيق

على حساب التصريحات الصحافية والمشير بعضها من طرف فقيه هنا أو هناك . كذلك مما يؤخذ على الكتاب عدم وجود رابط واضح بين القضايا المتناولة سوى صلتها بالطب، رغم أن الأدبيات المتراكمة تشير إلى بلورة أكثر من مدرسة «فقهية طبية» في تناول موضوعات الفتاوى «الطبية»، بطبيعة الحال مع وجود الفتاوى الفردية والتي قد تكون أحياناً نشازاً أو على الأقل لا تعبر عن التوجهات العامة بين المختصين في هذا الميدان. كذلك فإن الكتاب جعل مسألة الفتوى من الأمور الطبية/العلمية تدور فقط في مسألة اتخاذ موقف فقهي تقليدي وهذا أمر تنفيه الأبحاث التي نلمسها في الأدبيات الجديدة، حيث الاهتمام بالتبعات العامة الكلية على الإنسان بوصفه يمثل جنساً، نقصد بذلك أن الفتوى انتقلت من محاولة حل مشكلة سائل يسأل إلى اعتبار الموضوع برمته من الناحية الشرعية الطبية الأخلاقية في عمومه المجرد، بل يمكننا القول أن ما تظهره الأدبيات يمثل حقلاً معرفياً قيد الظهور.

لكن ورغم ما في الكتاب من أوجه قصور بسبب المصادر المقيدة والنظرة المعتمدة إلا أنه يشكل نقطة انطلاق مهمة، إذ إن معظم الكتابات المنشورة في العربية تعالج موضوعاً ما على حدة، وليس مسألة الأخلاق الطبية باعتبارها موضوعاً للمراجعة، والحاجة ماسة إلى تناولٍ أوسع وأكثر موضوعية وتفهماً.